المعرفة الصوفية والحب الإلهي

للدكتور محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة والتصوف بجامعة القاهرة

يلاحظ المتأمل فى تاريخ التصوف الاسلامى بصفة عامة ، والمتفحص حقائق الحب الإلهى ودقائقه بصفة خاصة ، أن الصوفية المسلمين المحققين المختحققين ، إنما كانوا عارفين بالله بقدر ما كانوا محبين له . أو أنهم محبون لله بقدر ماهم عارفون به . وهذا راجع إلى أن موضوع المعرفة وأدانها وغايتها هى هى بعينها عندهم موضوع الحب وأدائه وغايته . ويتبين هذا وضوح وجلاء إذا تدبرنا كلا من التعريفات التى يحدد بها الصوفيه معنى كل من المعرفه والحب : فنحن حين نقرأ تعريفات المعرفة وتعريفات الحب ، يخيل إلينا أننا إزاء لغتين تترجم إحداهما ما تعبر عنه الأخرى : فالعارف الذى يتحدث عن معرفته ، إنما يتحدث عن الحب ولكن فى لغة المعرفه . كما أن المحب الذى يتحدث عن حبه ، إنما يتحدث عن المعرفة ولكن فى لغة الحب . وآية هذا ما يحدثنا به حجة الاسلام أبو حامد الغزالى فى كتابه (احياء علوم الدين) من أن المعرفة عنده هى معرفة الحضرة الربوبية المحيطة بكل الموجودات : إذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى وأفعاله ، والكون كله من أفعاله ، وأن مايتخال للقلب من المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه . وصفاته الباقيات وأفعاله وحكمه فى خلق الدنيا والاخرة ، هو الجنة بعينها عند قوم . وسبب استحقاق الجنة عند أهل الحق . وأنه على قدر ماتتسع معرفة الانسان بذلك كله . تكون سعة نصيبه من الجنة . وما يحدثنا به الغزالى أيضا فى موضع آخر من الكتاب نفسه ، إذ يقول : إن من أحب غير الله لا من حيث نسبته الى الله . فذلك لجهله

وتصوره فى معرفة الله تعالى ، وإنه لا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر الله إلا تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه :

ولعلنا لو أردنا ان نظهر تطابق المعرفة والحب بمعناهما الالهى ، لما وجدنا خيراً من تعريف القشيرى للمعرفة تعريفا مستفيضا يكاد كل لفظ من ألفاظه ينطق بأنه تعريف للمحبة كذلك : « فالمعرفة - كما يقول القشيرى - هى صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئه وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه . فخلى من الله تعالى بجميل إقباله ، وصدق الله تعالى فى جميع أحواله : وانقطع عنه هواجس نفسه ، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره . فإذا صار من الخلق أجنبيا : ومن آفات نفسه بريا ، ومن المساكنات والملاحظة نقياً ودام فى السر مع الله تعالى مناجاته ؛ وحق فى كل لحظه إليه رجوعه . وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره : فيما يجريه من تصاريف أقداره . يسمى عند ذلك عارفا . وتسمى حالته معرفه . . . . وأى شىء أيسر من أن تستبدل لفظة ، المعرفة . بلفظة المحبة . ولفظة عرف بلفظة . أحب . ولفظة . عارفا بلفظة : محبا . وأن تقرأ تعريف القشيرى بعد ذلك . لتجد أنه سيستقيم لك استقامة لا عوج فيها ولا التواء بحيث ترى أنه تعريف للمحبة ووصف لحال المحب . بقدر ما هو تعريف المعرفة ووصف لحال العارف .

وإذا كان ذلك كذلك . فما عسى أن يكون موقف العارفين بالله والمحبين له من الحقيقة التى اتخذ منها أولئك موضوع معرفتهم : واتخذ منها هؤلاء موضوع حبهم ؟

الحق أن للحقيقة العلية ذاتاً واحدة مطلقة لا تكثر فيها ولا تعين . كما أن لها أسماء وصفات وأفعالا متكثرة تتجلى بها أو تتخلى فيها الذات الواحدة المطلقة . والمجالى التى هى من تجليات الذات بمثابة المرائى . هى الموجودات التى تملأ أرجاء الكون . والتى يفيض عليها وجودها مفيض الوجود على الكون وهذا يعنى بعبارة

أخرى أن الله من حيث حقيقته واحد فى الذات والاسماء والصفات والافعال: وأن ماينسب اليه أو يحمل عليه من ذات واسم أو صفة أو فعل. فإنما هى سبيل المجاز ذلك بأن كل أولئك هو فى الحقيقة (وعلى حد تعبير الصوفية أنفسهم) عكوس أنوار تجليات الذات والصفات الازلية والأسماء والأفعال فى مظاهر الكون: ومن هنا كان تفاوت مراتب الموجودات. واختلاف درجات المعرفة التى تتخذ موضعها من هذه الموجودات: وكان تباين طبقات العارفين بحسب هذا الاختلاف وذلك التفاوت: فيستدل بفعله على صفته. وبصفته على اسمه وباسمه على ذاته. ومنهم من يعرف الله عن طريق العيان. فيشهد الذات الالهية شهودا مباشرا. ويعرف بالذات الالهية اسماءها وصفاتها وأفعالها وليس من شك أن أرقى العارفين هو العارف الذى يشهد الذات الالهية شهودا عينياً. يؤدى إلى التحقق بالمعرفة اليقينية. وإلى تحقيق السعادة الحقيقية.

ومثل هذا يمكن أن يقال فى حب الانسان لله. فنحن إذا وقفنا عند صفة من صفات الذات الالهية: ولكن صفة الجمال. اليفنا الجمال الحقيقى عند متصوفية صفة أزلية لله عز وجل بمعنى أن الجميل الحقيقى هو الله. وأن كل ماهو حسن فى الكون من مخلوقات. فهو مظهر مفيد. ومجلى مبين. من مظاهر الجمال الالهى المطلق ومحاليه وإذا كان الصوفية يرون أن الله خلق الإنسان على صورته. وأن الله جميل وجماله حقيقى مطلق. فقد خلق الانسان جميلا. ولكن جماله حسن مقيد بالقياس إلى الجمال الالهى المطلق. وأودع الله فى فطرته. الاقبال على الجميل. والانجذاب الى كل ماهو جميل. سواء ما كان من هذا الجميل ذاتا إلهية مطلقة. وتجليات إلهية مقيدة بأسمائها وصفاتها وافعالها فى مظاهر الكون: وهذا الانجذاب إلى الجميل فى ذاته أو فى تجلياته هو مايعرف باسم الحب

ولما كان الجمال الإلهى. وهو من أخص صفات الذات الإلهية. وتجلياتها. متفاوتاً بتفاوت إطلاق الذات وتعين التجليات. فقد ترتب على هذا أن يكون للحب الالهى مراتب تتبين القيمة الروحية لكل منها من خلال ترتيبها على الوجه

التالى : ـ حب يظهر من معاينة الحس جمال الأفعال الالهية فى عالم الشهادة ، وهذا هو الحب الأعم . وحب يظهر من ملاحظة النفس جمال الأفعال الالهية فى عالم الغيب : وهذا هو الحب العام : وحب يظهر من مطالعة القلب جمال الصفات الالهية فى عالم الملكوت : وهذا هو الحب الخاص . وحب يظهر من مشاهدة الروح جمال الذات الالهية فى عالم الجبروت : وهذا هو الحب الأخص : فها هنا ثلاثة محبين بعضهم فوق بعض درجات وينعت حب كل منهم بأنه الهى ، وإن تفاوتت حظوظهم من الانجذاب إلى الجمال الالهى المطلق . أو إلى الحسن الكونى المعين : محب الأفعال الالهية : وهو أدنى المحبين . ومحب الصفات الالهية . وهو أوسطهم ، ومحب الذات الالهية وهو أعلاهم : وليس من شك فى أن محب الذات الالهية هو أعلى هؤلاء المحبين جميعا : لأن جمال الذات الالهية الذى يقبل عليه وينجذب إليه ويقف عنده حقيق أزلا . ثابت دائما : مطلق أبداً : على حين أن الأمر فى جمال الصفات والأفعال : ليس كذلك على كل حال : ومن هنا نظر الصوفية المسلمون إلى الجمال الالهى المطلق : على أنه حال روحية شريفة لا يذوقها ولا يتحقق بها الا من راض نفسه رياضة روحية وجاهد حسه مجاهدة قوية : بحيث يرتفع الانسان عن نفسه رويدا رويدا . ويسمو بحسه شيئاً فشيئا : وما يزال كذلك بين مجاهدة ورياضة حتى يقطع نفسه عن نفسها : ويقطع كل سبب بينها وبين غيرها . فاذا هى لا تحس شيئا ولا تنجذب إلى شىء : ولا تقبل على شىء : ولا تميز بين شىء وشىء : وذلك بانها قد أشتغلت بشىء واحد : وانجذبت إلى شىء واحد وأقبلت على شىء واحد . وذلك الشىء الواحد هو الذات الالهية ذات الجمال المطلق الذى انطوى فيه وفاض منه كل ما فى الكون من آيات الحسن المقيد الذى يتمثل فى هذا الصورة الجميلة المعينة أو تلك . ومن هنا أيضا رأى الصوفية المسلمون أن المعرفة اليقينية التى لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها . وأن السعادة الحقيقية التى لا تعادلها سعادة أخرى إنما تكون إحداهما وكلتاهما فى أن ننصرف عن الحسن المعين الى الجمال المطلق . وأن

تتسامى بكل مالدينا من جوارح ظاهرة وجوانح باطنه عن عالم الحس وما فيه من مظاهر زائلة وزخارف حائله ، إلى عالم الروح بما فيه من حقائق ثابته ولطائف باقية . وهناك فى عالم الروح العلوى تحيا الروح حياتها الخليقة بها فى ظل ظليل من الجمال الالهى المطلق الذى لم تعد تشهد سواه أو تتجذب إلى ماعداه .

ولقد أستغرق الشعور بالانجذاب إلى جمال الذات الالهية المطلق نفوس بعض الصوفية من المحبين . استغراقا يكاد أن يكون تاما بحيث لم يغادر معنى من المعانى الا ألم به ، ولا مجلى من المجالى الا تمثل فيه . وليس أروع ولا أمتع من هذا التصوير الذى صور به ابن الفارض استغراق الجمال المطلق بنفسه استغراقا جعله يشهد محبوبه الحقيقى فى كل معنى من المعانى فى كل مظهر من المظاهر وذلك على الوجه الذى نتبينه من قوله .

تراه إن غاب عنى كل جارحه
فى كل معنى لطيف رائق بهج
فى نغمة العود والناى الرخيم اذا
تالفا بين ألحان من الهزج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى
برد الأصائل والاصباح فى البلج
وفى مساقط أنداء الغمام على
بساط نور من الأزهار منتسج
وفى مساحب اذيال النسيم اذا
أهدى الى سحيرا أطيب الأرج
وفى التثامى ثغر الكأس مرتشفا
ريق المدامة فى مستنزه فرج

وليس من شك فى أن ابن الفارض ما كان ليصل الى هذه الحال من استغراق الجمال المطلق لنفسه . ومن مشاهدة هذا الجمال المطلق فى كل مظهر من مظاهر الطبيعة

التى صورها أبدع تصوير فى ابياته هذه . ولولا انه نقلب بحسه ونفسه وقلبه وروحه فى أطوار الحب الالهى ، فاستوعبها أو استوعبته هى طورا بعد طور حتى انتهى فى آخر هذه الأطوار أسماها الى أن لم يصبح محبا لصورة دون صورة . ولا مقبلا على مظهر دون مظهر . ولا منجذبا الى مجلى دون مجلى ، بل هو قد أصبح محبا للجمال فى كل صورة ومظاهره ومجاليه ، دلك بأنه قد رقت منه الروح بحيث أصبحت قادرة على مشاهدة الجمال الذى هو سنة من خصائص الكائنات المقيدة . إذ أن حسن كل شىء ليس فى الحقيقة عند ابن الفارض الا معنى جزئيا من معانى الجمال الكلى . أو هو على حد تعبير الشاعر الصوفى نفسه معادلة مع ذلك الجمال الالهى المطلق .

من الحان الحلاج

الله يعلم ما فى النفس جارحة ... الا وذكرك فيها نيل ما فيها
ولا تنفست الا كنت فى نفسى ... تجرى بك الروح منى فى مجاريها
إن كانت العين مذ فارقتها نظرت ... إلى سواك فخانتها مآقيها
او كانت النفس بعد البعد آلفة ... خلفا سواك فلا نالت امانيها